دور الحرب النفسية في إنجاح ثورة التحرير الجزائرية وإفشال سياسة الاستعمار الفرنسي الاستيطانية

أ.د بوسنه محمود

أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر2

ملخص

تعتبر الحرب النفسية من أخطر أنواع الحروب، فهي تسعى في البداية إلى تدمير المعنويات والإرادة القتالية عند أفراد العدو وذلك من أجل توليد عند هؤلاء فيما بعد، استعدادات الفشل وتقبل الهزيمة.

سنعمل في هذه الورقة على عرض وتحليل طبيعة الحرب النفسية التي عرفتها مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ 1830 وبرامجها واستراتيجياتها ومدى مساهمتها في تغليب الكفة لصالح استقلال الجزائر، وهذا رغم الفارق الكبير في القوة العسكرية والمادية والديبلوماسية لصالح المستعمِر. ويمكننا أن نقول بناء على تحليل المعطيات التاريخية المتصلة بهذه الحرب بأن الثورة الجزائرية تفوقت على الاستعمار الفرنسي في الحرب النفسية الاستراتيجية والتعزيزية وبالتالي نجحت في أن تفرض مسار الحرية والاستقلال. ونتيجة لقوة هذا الانتصار وصل بريق هذه الثورة إلى مختلف أنحاء العالم خاصة البلدان العربية والإفريقية وأمريكا اللاتينية.

الكلمات الدالة : البحرية الجزائرية، الأسر، الأسير، فدية، قرصانة، سفينة، قبطان والبحر.

Résumé

La guerre psychologique est considérée comme l'une des guerres les plus dangereuses. Son premier objectif est en effet, de réduire à néantle moral et la volonté de combattre de ses ennemis, et cela afin de faire naître en eux le sentiment d'échec et d'acceptation de la défaite. Cet article se propose d'analyser la nature, le contenu et les stratégies de la guerre psychologique menée, aussi bien par le colonisateur que le colonisé, durant la colonisation françaises de l'Algérie. Les données montrent que malgré un écart important en faveur du colonisateur, concernant la force militaire, organisationnelle et diplomatique, la révolution algérienne a dominé quant à la guerre psychologique stratégique et la guerre psychologique de soutien et par conséquent a réussi à tracer la voie de la liberté et de l'indépendance. Cette

Abstract

Psychological warfare is considered to be as one of the most dangerous war. Its primary objective is indeed, to wipe morale and will to fight of theenemy. This is in order to create later, in theenemy personnelthe feeling of failure and acceptance of defeat. This article propose to analyze the nature, content and strategies of conducted psychological warfare during the French colonization of Algeria, by both the colonizer and the colonized.The data show that despite a significant difference in term of strength (military, organizational and diplomatic) in favor of the colonizer, the Algerian revolution has dominated in its strategic psychological warfare and Psychological warfare of reinforcement and therefore was able to trace the path of freedom and independence. This Algerian experience has surpassed the borders of the country and served as a model to many oppressed peoples around the world.

expérience algérienne a dépassé les frontières du pays, et a servi de modèle à beaucoup de peuples opprimés à travers le monde.

Mots clés :La guerre psychologique, guerre militaire, le colonialisme, la révolution, la liberté.

Keywords: Psychological warfare, military war, colonialism, revolution, freedom

مقدمة

تعتبر الحرب النفسية قديمة قدم المجتمع البشري حيث نجدها منذ العصور القديمة تسبق وتواكب وتستمر حتى بعد الحرب العسكرية، فالقائد العسكري يستخدمها من أجل خدمة خططه وضمان نجاح تدخلاته العسكرية في الميدان.

وتجدر الاشارة إلى أن الحرب النفسية رغم أهميتها وتطور أساليبها وتقنياتها، فإنها مازالت تثير العديد من التساؤلات وبعض الحذر عند العديد من الباحثين بسبب خصوصيتها والسرية التي تمس العديد من عملياتها؛ مما جعل البحث فيما يخص الكثير من الحروب والثورات ينحصر بالدرجة الأولى في التحليل التاريخي للأحداث والعمليات العسكرية دون التعمق في الجوانب المتصلة بالحرب النفسية التي رافقت هذه الحروب. وفي هذا إلاطار نلاحظ بأنه عندما نتمعن في الكتابات حول الاحتلال الفرنسي للجزائر والثورة الجزائرية وهذا سواء من طرف الباحثين الجزائريين أو الفرنسيين، نجد أن أغلبيتها تندرج ضمن التحاليل التاريخية السردية للأحداث (الغالي 2009). ولهذا نرى أنه من الضروري أن يساهم مختلف المختصين في دراسة هذه المرحلة من تاريخ الجزائر وتحليلها وتمحيصها من أجل الوصول إلى قراءة أكثر عمقا بفضل تعدد التساؤلات والمقاربات والتدقيقات.

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان دور الحرب النفسية في نجاح ثورة أول نوفمبر 1954 في استرجاع استقلال الجزائر وإفشال مشروع الاستيطان للمستعمِر. ومن البداية يجب الإشارة إلى أن الحرب التي نتجت عن تفجير هذه الثورة دارت بين قوتين غير متكافئتين من الناحية العسكرية ومن الناحية السياسية والاقتصادية. حيث نجد فيما يخص القوة العسكرية جيش التحرير الوطني من جهة وجيش الدولة الفرنسية من جهة أخرى.

جيش التحرير الوطني: يعتبر مؤسسة عسكرية حديثة النشأة. كان يعتمد بالأساس على الأسلحة الخفيفة ومتطوعين أغلبيتهم في حاجة إلى التدريب القاعدي على استخدام السلاح، هذا بالإضافة إلى النقص في العتاد والتنظيم والتجربة والدعم المادي خاصة مع بداية الثورة.

جيش الدولة الفرنسية: يعتبر هذا الجيش مهيكل ومدرب ومنظم بصورة جيدة، ويملك أسلحة متطورة من الخفيفة إلى الثقيلة وفي مختلف الأنواع (بر، جو، بحر) مع تمتعه بخبرة قتالية طويلة.

أما فيما يخص القوتين السياسيتين المتقابلتين فإننا نلاحظ نفس الصورة، حيث نجد من جهة جبهة التحرير الوطني وهي تنظيم حديث النشأة أشرف عليها شباب قوتهم الأساسية عقيدة قوية فيما يخص قضيتهم «استقلال الجزائر» واستعداد كامل للتضحية ودعم من طرف أغلبية الشعب لهذه القضية. لكن امكانياتهم المادية محدودة وتجربتهم فيما يخص التنظيم والتسيير والعمل الديبلوماسي قصيرة. هذا بالإضافة إلى أن هذا التنظيم السياسي كان في حاجة في المرحلة الأولى من هذه الثورة إلى الحصول على الاعتراف الرسمي لكل من الأحزاب والجمعيات والشخصيات الجزائرية وعامة الشعب من جهة والمجتمع الدولي من جهة أخرى. وفي المقابل نجد دولة فرنسا العريقة من حيث مؤسساتها وإدارتها وأحزابها وإطارتها العاملة في مختلف القطاعات الاجتماعية والاقتصادية، وإعلام قوي متواجد على المستوى الداخلي والدولي. وفوق ذلك كانت تتمتع هذه الدولة في ذلك الوقت، بمكانة مرموقة فيما بين الدول المسيطرة على الساحة العالمية، واعتراف لا غبار عليه على المستويين الداخلي والخارجي بشرعيتها وشرعية مؤسساتها.

ورغم هذا الفارق الصارخ لصالح القوة الاستعمارية فالمعركة الشاملة والتي دامت أكثر من سبع سنوات (1954–1962) أنصفت الجزائر. حيث أن الفارق الكبير فيما يخص الإمكانيات المادية والتنظيمية لصالح المستعمِر لم يُوهله للصمود أمام الفارق الكبير في المعنويات النفسية والإيمان بعقيدة التحرير الذي كان لصالح المستعمَر. ترى ما هي طبيعة هذه الحرب النفسية التي دارت فيما بين المستعمِر والمستعمَر وما هي استراتيجية كل طرف في هذه الحرب وهذا منذ سنة 1830؟

– منهجية البحث

لتقديم إجابات وافية عن الأسئلة المطروحة في هذا البحث حول الحرب النفسية المعتمدة من الطرفين خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830–1962)، عمدنا إلى استخدام المنهج

التحليلي. حيث تم تحليل استراتيجيات هذه الحرب وطبيعة محتوياتها ونتائجها وهذا في إطار السياق التاريخي والسياسي والحربي الخاص بهذه الحقبة الحرجة من تاريخ الجزائر.

ولتحقيق أهداف هذا البحث كان التركيز على تحليل مضمون العديد من الوثائق التاريخية الهامة والتقارير والنصوص التشريعية ذات الصلة بفترة الاستعمار الفرنسي للجزائر؛ كما تم تنظيم الأدلة البحثية الموثقة في بحوث دولية ووطنية وسلسلة من البيانات الكمية والنوعية المتصلة بالموضوع.

إن الاعتماد على المنهج التحليلي في دراسة مواضيع معقدة مثل الحرب النفسية، يمكّن الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية من تحليل البيانات والمعطيات والأحداث المتصلة بالموضوع تحت الدراسة في إطار سياقاتها التاريخية، وبالتالي التعمق أكثر في الفهم وفي اكتشاف ما وراء الظواهر والأفكار.

1- ماذا نقصد بالحرب النفسية ؟

تعتبر الحرب النفسية من أخطر أنواع الحروب، لأنها تستهدف عقول وقلوب أفراد الطرف الآخر، سواء كانوا مدنيين أو عسكريين، وذلك من أجل الوصول إلى تدمير روح معنويات أفراد العدو وبالتالي تحقيق انهيارهم النفسي وجعلهم من جهة يفقدون الثقة في مؤسساتهم ومن جهة أخرى ينبهرون بقدرات وامكانيات وفعالية الطرف المقابل (محمد منير حجاب 2009، وعمر هارون خليفة 2009). وتبقى الغاية المقصودة من هذه الحرب هو القضاء على الإرادة القتالية عند العدو وتنمية لديه الاستعداد لتقبل الهزيمة.

لقد أصبحت الحرب النفسية مع نهاية القرن 21، تعتبر من الأركان الأساسية للعمل السياسي والعسكري في جميع الدول خاصة منها المتقدمة؛ وصارت يُعتمد عليها أكثر من الحرب العسكرية وهذا عكس ما كان عليه الأمر قبل الحرب الباردة. حيث تراجعت الحرب العسكرية إلى الصف الثاني، لم يعد يُلجأ إليها إلا لتثبيت نتائج الحرب النفسية أو للتعجيل بحدوث بعض النتائج. وتؤكد لنا وقائع «الفوضى الخلاقة» في الشرق الأوسط وشمال افريقيا[1]، أن هذا الاتجاه الجديد في الحروب أصبح حقيقة وأن الحرب النفسية غدت تتصدر إدارة الصراعات الدولية. إن أسباب ذلك متعددة ويمكن حصر أهمها فيما يلي :

- التقدم الذي أحرزته العلوم النفسية والعلوم الاجتماعية في معرفة العوامل التي تؤثر على السلوك (سلوك الفرد أو سلوك المجموعات)؛

[1] الفوضى الخلاقة حسب تعبير كاتبة الدولة للخارجية الأمريكية كنذليزا ريس

- التقدم الكبير فيما يخص تكنولوجية الإعلام والاتصال؛

- تطور أسلحة الدمار الشامل عند العديد من البلدان بصورة مرعبة من حيث قدراتها التدميرية، مما جعل الجميع يحرص على أن تستخدم فقط من أجل الردع وكبح فكرة اللجوء إلى مثل هذه الأسلحة.

يوجد العديد من التسميات التي اطلقها الباحثون للتعبير عن هذه الحرب الغير مادية. ويعود هذا التعدد في التسمية بالدرجة الأولى إلى كون الباحثين والمهتمين بالموضوع ينطلقون من تجارب بلدانهم ومن نظراتهم الخاصة في تقديم تناولاتهم وتحليلاتهم (محمد منير حجاب (2009). ومن بين هذه التسميات نجد التالية وهذا حسب البلدان:

- الحرب السياسية في بريطانيا؛
- الحرب الفكرية في ألمانيا؛
- حرب الدعاية في روسيا؛
- حرب العمليات النفسية أو حرب الأعصاب في أمريكا؛
- الحرب الحضارية في الصين
- الحرب النفسية في فرنسا ....

وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نضيف : الحرب العلمية وحرب العقول وحرب الإرادة والحرب العقائدية.

وفيما يخص الحرب غير المادية التي مهدت ورافقت الحرب العسكرية التي دارت بين القوات الجزائرية وقوات الاستعمار الفرنسي، فنفضل استعمال تسمية الحرب النفسية لأنها معبرة أكثر عن حقيقة هذه الحرب عن غيرها من التسميات. وذلك لأنه عندما نتمعن فيما يميز القيادات التي فجرت الثورة الجزائرية وأغلبية أفراد الشعب الذين آزروهم وآمنوا بالمشروع التحرري عن غيرهم، هو المعنويات النفسية العالية غير المحدودة وهذا نتيجة إلايمان الكبير بعدالة القضية من جهة ومن جهة أخرى التركيز في تفكيرهم وفي وجدانهم على قبول حل وحيد فقط وفقط، ثنائي المخرج وهو إما الاستقلال أو الاستشهاد في ساحة المعركة.

2- طبيعة الحرب النفسية في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي للجزائر

تعتمد عمليات الحرب النفسية بالأساس على الكلمات والأفكار بهدف تغيير السلوك، والموضوع المفضل لها هو شخصية الفرد. ومن تم قد عرفت أسلحتها تطورا مستمرا منذ القدم، حيث كانت تعتمد على الجواسيس والدعاية والشائعات والتخويف وإلارهاب وإثارة الفتن والاغتيالات وتشجيع التمرد.... ومع تطور علم النفس وإلاعلام وتكنلوجية الاتصال شهدت أسلحة هذه الحرب تحسنا في الأسلوب والوسائل، حيث أصبحت برامجها تبنى على أسس علمية مدروسة تعتمد كثيرا على وسائل إلاعلام المختلفة الجد متطورة (السمعية والمكتوبة والسمعية-البصرية والشبكاتية...). فمن الأسلحة التي أصبحت شائعة الاستخدام نجد ما يلي:

- غسل الدماغ (تمزيق شخصية الفرد وخلق شخصية جديدة)؛
- استخدام الأقليات العرقية والعشائرية؛
- استخدام المنظمات (المحلية والدولية بشرائها ماليا أو عقائديا)؛
- التزوير (العملة، الجوزات....)؛
- الضغوطات والحصار الاقتصادي؛
- العمل على تعطيل وسائل الاتصال الخاصة بالعدو.

ترى ما هي الأفكار التي اعتمدت عليها القوات الفرنسية في مختلف مراحل احتلاها للجزائر في بناء برامج الحرب النفسية وما هي الوسائل التي استخدمتها؟ وفي المقابل ما هي ردود فعل الطرف الجزائري لمواجهة هذه الحرب المرافقة للحرب العسكرية التي شُنت عليه من طرف المستعمِر؟ إن مسار الحرب النفسية خلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر مر بعدة مراحل، تتميز كل مرحلة منها باستراتيجية واهداف مختلفة عن المراحل الأخرى. وتبين لنا المعطيات المتوفرة والتي سنقدمها فيما سيأتي أن المستعمِر فشل في الحفاظ على الأفكار التي زعم بها والتي نشرها بصورة واسعة على أنها حقائق مع بداية الاحتلال حول الشعب الجزائري وبنى برامج حربه النفسية على أساسها؛ حيث أجبر مع الزمن على تغيير هذه الأفكار والاعتقادات الخاطئة والمشحونة بالأحكام المسبقة العالية السلبية.

لدراسة هذا التحول سنقسم فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى ثلاث مراحل وهذا بناء على كل من : 1– طبيعة الحرب النفسية التي اعتمادها المستعمِر في محاولة منه لتحقيق استسلام المستعمَر وانهياره، 2– وطبيعة التكيف وردود الفعل للمستعمَر مع هذه الحرب واستراتيجيته الخاصة وخططه التي اعتمدها لتحقيق النصر. وفيما يلي نقدم هذه المراحل الثلاث :

ا– مرحلة عزو فرنسا للجزائر وبسط سيطرتها على ربوع البلاد (من بداية الغزو1830– إلى نهاية الثورات الشعبية 1900)

ب – مرحلة عملية التكيف مع الهزيمة النفسية وإعادة بناء الذات (1900– 1954)

جـ – مرحلة التحرير (1954–1962)

3– المرحلة الأولى (1830–1900) غزو فرنسا للجزائر: نجاح الحرب النفسية المعتمدة من طرف المستعمِر

إن غزو فرنسا للجزائر أكتمل بعد حوالي سبعين سنة من المقاومات الشعبية العسكرية. وتميزت هذه المرحلة بنجاح الحرب النفسية المعتمدة من طرف المستعمِر، حيث مكنته من مد سيطرته على ربوع الجزائر بصورة كاملة وهذا بعد ما دحر فكرة المقاومة عند الجزائريين [2].

يقدم لنا الجدول (1) معطيات فيما يخص أفكار ووسائل وأدوات الحرب النفسية التي تم استخدمها من طرف المستعمِر أثناء هذه المرحلة من غزو الجزائر. يبدو واضحا من خلال الجدول أن برنامج المستعمِر الخاص بحربه النفسية مقسم إلى قسمين. القسم الأول كان موجها للفرنسيين والأصدقاء (الأوروبيين بالدرجة الأولى)، وكان يتجاوب مع طموحات المستعمِر التوسعية الاستيطانية. حيث هدف بالأساس إلى تمجيد فرنسا، الدولة العظمى (فرنسا الحاملة للحضارة) وإلى تحقير سكان الجزائر (المتوحشين غير القابلين للتحضر). تناست فرنسا المستعمِرة أنها كانت لديها اتفاقيات سياسية وتجارية مع الجزائر (قنان 2009 المجلد الأول)، وأنها مدِينَة للجزائر مصدر أمنها الغذائي حسب هذه الاتفاقيات. لقد نالت الجزائر مثل ما قال الرئيس الراحل فرحات عباس جزاء سنمار (2007). والملاحظ أن الاستعمار الفرنسي اعتمد على الوسائل المناسبة لتحقيق النتائج

[2] تمثل نهاية ثورة الشيخ بوعمامة (1881–1904) إعلان ضمني عن إدراك الشعب الجزائري بعدم قدرة مثل هذه الثورات على تغيير الواقع الاستعماري للجزائر ولهذا انطفأت أنوار طريق المقاومة العسكرية فيما بعد ولم تظهر مع مطلع القرن العشرين إلا القليل من المقاومات الشعبية المحدودة مثل (مقاومة عين تركي (1901) ومقاومة الطوارق (1916–1919)).

التي كان ينتظرها من حربه النفسية ومن الأفكار التي كان ينشرها في إطار هذه الحرب. حيث استطاع أن يجند النخب الفرنسية (الفكرية وإلاعلامية والدينية...) وكذلك النخب الأوروبية في الترويج والتنظير لقضيته الاستعمارية (غرائميزون2005) وذلك بهدف تحقيق مساندة شعبية واسعة داخليا وحماية ظهره أوروبيا.

الجدول (1) : أفكار ووسائل الحرب النفسية المعتمدة من طرف المستعمِر خلال المرحلة ألاولى من الاحتلال (1830–1900)

الحرب النفسية الموجهة إلى الفرنسيين		حرب المعنويات النفسية الموجهة إلى الجزائريين	
ألافكار التي نشرت لتسويق مشروع الاستيطان بالجزائر	**الوسائل وألادوات المستعملة**	**ألافكار التي اعتمدت لتفكيك الشخصية الجزائرية والقضاء عليها وغرس روح الاستسلام التام فيها**	**الوسائل وألادوات المستعملة**
– فرنسا حاملة للحضارة لأرض الجزائر؛ – سكان الجزائر متوحشين وبدائيين وغير قابلين للتحضر؛ – استعمار الجزائر قضية شرف وكرامة بالنسبة لفرنسا؛	– النخبة المثقفة الفرنسية بالدرجة الأولى (دي توكفيل، فيكتور هيقو، لامرتين....)؛ – رجال الإعلام (السمعي، السمعي–البصري، المكتوب...)؛ – شخصيات سياسية وعلمية داخل فرنسا ومن أوروبا؛ –رجال الدين؛ – استخدام المنظمات السياسية ومنظمات المجتمع المدني؛ – استخدام مختلف وسائل الاتصال (السفارات، الندوات، المقابلات....)؛	**1– أفكار تخادعة الجزائريين وكسب ود البعض منهم لتسهيل الغزو والحد من المقاومة :** – فرنسا بلد قوي ومتحضر سيساعد سكان الجزائر على التحضر والتخلص من سيطرة الأتراك، – فرنسا القوية ستحترم دين الجزائريين ولغتهم وثقافتهم وأملاكهم، – إن جيش فرنسا قوي جدا ولا يهزم ولهذا لا توجد أية جدوى من مواجهته...والأسلم لجميع هو الجنوح للسلام والابتعاد عن المشوشين. **2– أفكار للترهيب والتركيع والقضاء على جزء من سكان الجزائر بهدف التمكين التام للمعمرين من الأرض:**	– الدعاية بمختلف أنواعها؛ – الجواسيس؛ – العملاء ؛ – المنشورات، – الترهيب والتخويف – التهجير الفردي والجماعي – حرق المحاصيل الزراعية، – الاستلاء على الراضي، – القتل الفردي والجماعي، – المحارق؛ –حرق القرى وتهجير سكانها؛ – المحتشدات ؛ – الاغتيالات ؛ – الاعتداء على شرف الأسر؛ – تحويل المساجد إلى كنائس أو مقرات أو هدمها ؛

		– التهجير بداخل وخارج الجزائر؛ – التفقير الاقتصادي للجزائريين؛ – التفقير الثقافي للجزائريين؛ – التفقير الأخلاقي للجزائريين؛ – العقاب المادي الفردي والجماعي، بسبب وبدون سبب؛ 3– أفكار لغرس روح الدونية والاستسلام : – وضع قانون خاص بالسكان الجزائريين ؛ – التفرقة بين البربر (يصلحون للأعمال اليدوية) والعرب (الكسالى فهم على حالهم لا يتغيرون)، – التفرقة بين سكان الجزائر من عرب وبربر واليهود الساكنين بالجزائر،	– غلق المدارس؛ ... – قانون الأهالي(1865) – قانون إكريمو (1871) – الدعايات؛ – الشائعات؛ – استخدام تقنيات التفرقة؛ – التخويف والاغتيالات؛

– تم إعداد هذا الجدول بالاعتماد على تحليل مضمون العديد من الوثائق التاريخية والتقارير والنصوص التشريعية والادلة البحثية الموثقة في بحوث (دولية ووطنية) ومجموعة من البيانات الكمية والنوعية المتصلة بهذه الفترة من الاستعمار الفرنسي للجزائر. وفيما يلي نذكر أهمها:

– أبو القاسم سعد الله (2005) : الحركة الوطنية الجزائرية

– لامارتين (1834) : الخطاب الثاني في الأعمال الكاملة وكتابات في السياسة

– ف. هيكو(1852) : أشياء رأيتها، باريس،

Coloniser exterminer (2005) O. Grandmaison

- فرحات عباس (2010) ليل الاستعمار

– محمد باشا محمد (2005) الاستلاء على ايالة الجزائر– بوعلام نجادي (2007) الجلادون

– Travail sur l'Algérie (1841) De Tocqueville

- عمار حمداني (2007) حقيقة غزو الجزائر

– بوعزيز يحي (1996) ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرون
– قنان (2009) دراسات في المقاومة والاستعمار
– Les crimes d'états (2004) jacques Vergès
- محند الشريف ساحلي ((2013تخليص التاريخ من الاستعمار
– بشير الفرحي (2007): مختصر وقائع وأحداث ليل الاحتلال الفرنسي للجزائر
– قنان (2009) معاهدات الجزائر مع فرنسا

إن النتائج التي حققها المستعمِر فيما بين 1830 – 1900 تبين بوضوح بأنه تمكن من كسب غطاء معنوي وفكري هام لمشروعه الاستيطاني ولتجاوزات قادته (العسكريين والسياسيين) غير المحدودة في حق الجزائر والجزائريين أثناء مد سيطرتهم على مختلف المناطق من البلاد. فقد حصلت قوات الاحتلال الفرنسية فعلا على الدعم غير المشروط من طرف مختلف القوى الفرنسية والشخصيات البارزة في ذلك الوقت أمثال دي توكفيل وفيكتور هيقو ولامارتين وقي– موباسان والطبيب دوبيشون وغيرهم. فالجميع كان يشاطر عمليات تحطيم الوحوش (السكان الأصليين للجزائر) كما كان يسميهم المستعمِر واستباحة كل شيء فيما يخصهم وتحويل حياتهم إلى سلسلة من النكبات حتى يستسلمون ويعترفون بسلطة فرنسا. وذلك لأن النخبة في فرنسة كانت تنظر إلى التوسع الفرنسي في إفريقيا أمر أساسي لاسترجاع الأمن الداخلي والتفاوض على مكانة مرموقة بين دول أوروبا والعالم. فهذا دي توكفيل يقول «إن بلوغ فرسا لغاياتها في الجزائر يعني نهوضها وإذا فشلت فلها الخزي في الخارج والانهيار في الداخل»[3]. وهذا لامارتين ينتفض ضد مجموعة قليلة نادت بإعادة النظر في استعمار الجزائر نتيجة التكلفة العالية ويقول بحزم « لن نتخلى أبدا عن الجزائر» وأتهم بالخيانة هؤلاء المترددين لكونهم، حسب رأيه ليس فقط ضد مصلحة الوطن والمجتمع وإنما أيضا ضد الإنسانية[4].

وتجدر الإشارة إلى أن الرأي العام في أوروبا كان يشاطر هذه الطروحات بصورة عامة خاصة الأوساط المتنورة والمحبة لما سماه فرجاس «إله التقدم» (2004). فالبورجوازية الأوروبية المتنورة كانت تعتبر الأجناس السوداء [5] غير قابلة للتمدن وهذا لتبرير كل ما

[3] Alexis de Tocqueville (1841) : Travail sur l'Algérie .

[4] لامارتين (1834) الخطاب الثاني في «الأعمال الكاملة وكتابات في السياسة» مذكور في غراميزون

[5] الأجناس السوداء يقصد بها في تلك الفترة جميع الأجناس التي لا تتمتع بصفات الجنس الأبيض الذي تتشكل نخبته من الجنس السكسوني، وليس الجنس ألسود اللون.

يجري في المستعمرات الموجودة خاصة بإفريقيا والتي تم تقاسم بلدانها فيما بين القوى الأوروبية في مؤتمر برلين 1885. وساهمت كتابات العديد من مفكرين وأعلام القرن التاسع عشر في إعطاء مثل هذه الأفكار صبغة الموضوعية والعلمية وهذا رغم أنها عبارة عن احكام مسبقة ذات محتوى جد مغلوط. فداروين عالم البيولوجيا وصاحب نظرية التطور كتب في العديد من المرات على «الأجناس المتوحشة». حيث أنه في إحدى رسائله إلى السيد شارل لييّل (1859) وفي كتابه عن أصل الإنسان (1871) أبدى الموافقة على إمكانية إبادة الأجناس الأقل معرفة وتفكيرا من أجل التقدم. وذهب في هذا الاتجاه العديد من مفكري تلك الفترة، حيث نجد من بينهم فريديرك إنجلس الذي لم يتردد في مباركة الفعل الحضاري لعملية غزو فرنسا للجزائر. لقد كتب يقول بأنه يفضل النظام البورجوازي العصري لأنه في رأيه يمثل الحضارة على قطاع الطرق والنظام اللا–حضاري الذي ينتمون إليه أهالي ايالة الجزائر[6].

وهكذا وجد قادة المستعمِر السياسيين منهم والعسكريين، الطريق معبدا لكي يبرمجوا حرب نفسية موجهة إلى الجزائريين متعددة الأوجه. يمكن اختصارها في ثلاثة أوجه، الهدف منها القضاء الفعلي على جزء هام من السكان (عن طريق المجازر والمحارق...) ونفي جزء آخر منهم بصورة فردية وجماعية إلى خارج الجزائر ليتم تعويضهم بالسكان الأوروبيين وتركيع ما تبقى من الأهالي وذلك بوضعهم في أحضان الذل والهوان وجعلهم يستسلمون لسيطرة الفرنسيين من خلال اتخاد إجراءات متعددة منها سن قوانين تحدد لهم الكثير من الواجبات ولا تمنح لهم أية حقوق تذكر (قانون الأهالي)، (الجدول 1).

ويلخص فرجاس (2004) فضاعه الاستعمار أحسن تلخيص حيث يؤكد على أن الإبادة العنصرية الاستعمارية تعتبر جريمة عصرنا بامتياز؛ حيث حرمت شعوب بكاملها ليس فقط من مكسب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في القرن التاسع عشر وإنما من مجرد حق العيش.

إن الوجه الأول من الحرب النفسية المعتمدة من طرف المستعمِر في المرحلة الأولى من الاحتلال والتي كانت موجه للجزائريين، كانت مبنية على أفكار ترمي لمخادعة الجزائريين وكسب ود البعض منهم لتسهيل الغزو والحد من المقاومة. حيث عمِل المستعمِر على نشر شعارات تؤكد على أن فرنسا بلد قوي ومتحضر سيساعد سكان الجزائر على

[6] إنجلز (1848) النجم الشمالي في « ماركس والماركسية والجزائر» نصوص إنجلز وماركس من تقديم غالسون.).

التحضر والتخلص من سيطرة الأتراك، وأن فرنسا القوية ستحترم دين الجزائريين وثقافتهم وأملاكهم وغيرها من الأفكار المشابهة، وهذا عن طريق كل من الدعاية بمختلف أنواعها والجواسيس والعملاء والمنشورات.

أما الوجه الثاني من الحرب النفسية الموجه للجزائريين فالمستعمِر اعتمد في برنامجه على أفكار أخرى تهدف إلى ترهيب سكان الجزائر والقضاء على جزء منهم بهدف تمكين المعمرين من أغلبية الأراضي الصالحة للزراعة. ولتحقيق ذلك منحت القيادة العسكرية نفسها وهذا بدعم من طرف الجميع (السياسيين والنخب) الحق في استباحة كل شيء في الجزائر من تقتيل للجزائريين بصورة فردية وجماعية، ومحارق (حيث تمَّ في العديد من الغارات وهذا حسب شهادات قدمها القادة العسكريون الذين أشرفوا على هذه الغارات، دفع وحشر المئات من الأهالي في مغارات أو كهوف وغلق المنافذ بالأشجار والاعشاب ... ثم إشعال النيران)، وحرق للقرى والمحاصيل الزراعية، وتدمير للمباني والمساجد والمدارس، تقتيل للمواشي... (قرانميزون2005)، بوعلام نجادي (2007)، قنان (2009) ، أبو القاسم سعد الله (2005)). ولتوضيح أكثر تصورات القادة المشرفين على مثل هذه العمليات نورد فيما يلي قول القائد بيجو فيما يخص السكان الجزائريين «إن جسم العربي يعذب بكل أنواع التعذيب ويقطع إربا إربا ويدخن قبل أن يصير في نهاية الأمر مادة خام»[7] . وحول هذا الاتجاه يقدم قرانميزون التحليل الموالي (2005) : «إن هذه النظرة اعتمد عليها في احتلال الجزائر من اجل استتباب السلم والأمن للمعمرين». وتجدر الإشارة إلى أنه حتى الأديب المشهور أبو البُوساء، فيكتور هيقو كان مطلعا على هذه الأعمال البشعة الخاصة بالجيش الفرنسي في الجزائر، حيث كتب بتاريخ 15.10.1852 ما يلي» بالأمس قال لي الجنرال لوفلو أن الجنود أثناء الغارات يترامون أحيانا بالأطفال من على أسنان بنادقهم...» إلا أنه لم يحرك ساكنا، بل كان يرى « أنها مسيرة الحضارة وتقهقر الوحشية، إنه لقاء شعب متنور بشعب يعيش في الظلام)[8].

وهكذا يمكن القول بأن ممارسة مختلف أنواع التدمير والتعذيب غير المحدودة كانت مهيكلة منذ بداية الاستعمار بهدف ليس فقط انتزاع المعلومات من أجل إنجاح الغارات وإنما أيضا كوسيلة عقاب فردي وجماعي (بوعلام نجادي (2007)، كلود ليوزو (2007)). والمفيد هنا هو أن العديد من القادة العسكريين أنفسهم كانوا يشرفون على هذه الممارسات (بيجو، سان انرو، كلوزيل، بيلييسي...) وبصورة علنية وذلك لأنهم، وهذا

[7] بيجو خطاب مذكور في غرانميزون 2007 ص 281 ،
[8] فيكتور هيكو (1852) : أشياء رأيتها، باريس – غاليمار.

حسب تصوراتهم وتصورات فلسفة الاستعمار، لم يعتدوا على أي قانون شرعي بل يحق لهم باسم الدفاع عن الحضارة الأوروبية فِعْل كل ما يريدون من أجل تأكيد سيطرتهم وتثبيت قوتهم وحتى إفراغ نزواتهم (قران ميزون 2005).

ولعل أحس ما يمكن التعليق به هنا حول تناقضات الاستعمار هو ما كتبه الرئيس الراحل فرحات عباس في كتابه «ليل الاستعمار» (2010) من أجل شرح وتبيان خروقات الفكر الغربي وزيفه وتهافتاته وأخطائه وتناقضاته وهذا في إطار ما اسماه إدوارد سعيد بالوضعية ما بعد الكولونيالية. حيث قال : إننا نجد خلف القاعدة الهشة التي بنى عليها الاستعمار الفرنسي ادعاءاته مثل: الحضارة – الثروة المعرفية – العصر الصناعي– الميراث الإغريقي الروماني – التفوق – الثقافة الراقية – النظام الراشد ... الخ، واقعا آخر مخالفا ومتناقضا وهو: الهمجية – الظلم – الاسترقاق – الاستعباد – نهب ثروات الغير – طمس تاريخ الآخرين – تشويه الحقائق – احتقار الآخر...إنه الاستعمار.

وفي الواقع إن تجاوزات المستعمِر بدأت مباشرة بعدما استطاع خرق الدفاعات الجزائرية لمدينة الجزائر بدون عناء كبير، حيث نزلت قواته في شواطئ سيدي فرج وبعد معركة سطاوالي التي كانت قصيرة، تم تسليم المدينة يوم 5 جويلية 1830 (محمود باشا محمد (2005)، عمار حمداني (2007)، بوعلام نجادي(2007)).

والجدير بالذكر هو أن الداي والقيادة في مدينة الجزائر التي كانت مكلفة بالإعداد لمواجهة الغزو الفرنسي كانوا بعيدين كل البعد عن الحدث، مما أثر سلبا على معنويات الجزائريين الذين أتوا من مختلف الإيالات تلبية لنداء الدفاع عن مدينة الجزائر، ولكنهم لم يجدوا لأنفسهم ولخيولهم عند إبراهيم آغا القائد الأعلى، لا مؤونة ولا سلاح ولم يتمكنوا حتى من اقتنائها بأموالهم الخاصة (محمود باشا محمد 2005). وفي هذا الإطار يقول سعد الله (2005 المجلد الثالث) في تحليله لمعركة مدينة الجزائر « فلاغا إبراهيم كان لا يوحي إلا باليأس والفشل». وهكذا يمكننا أن نقول بأن سقوط مدينة الجزائر وما نتج عنها من تزعزع لمعنويات الجزائريين، تعتبر بداية قاسية لتجربة مريرة لشعب كامل، لكن دون أن يستسلم للأمر الواقع، حيث بدأت الثورات الشعبية ودامت حتى بداية القرن العشرين، وهذا مع نهاية ثورة الشيخ بوعمامة

(أبو القاسم سعد الله (2005)، قنان (2009 المجلد الرابع)، بوعزيز (1996)، فيلالي (2007)، قورصو (2011). إن اندلاع هذه الثورات الشعبية تدل على وجود نقطتين هامتين:

أولا: عدم وجود مؤسسات مركزية قوية عند الجزائريين يمكنها تنظيم المواجهة الشاملة مع العدو المستعمِر وثانيا: وجود شعور وطني في مختلف مناطق الجزائر مع الاستعداد لمواجهة العدو رغم وحشيته.

وجد الجزائريون أنفسهم بعد سقوط مدينة الجزائر بسهولة نوعا ما أمام وضع غريب، لم يكونوا قادرين على فهمه وإدراك إبعاده وتداعياته بصورة واضحة وبالتالي تفرقوا جماعات وجماعات بدون أية خطة جامعة لمواصلة العمل اللازم لطرد العدو. وبدأوا ينظمون المقاومات الشعبية بصورة متفرقة هنا وهناك عبر مختلف نواحي البلاد، وهذا لأن عوامل الدولة المركزية الموحدة لم تكن متوفرة. وفيما يلي نذكر أهم الثورات الشعبية لتبيان مدى رفض الجزائريين للاستعمار الفرنسي من جهة ومدى تشتتهم وعدم تنظيم قوتهم ومجهوداتهم في هذه المرحلة من الاحتلال من جهة أخرى، مما سهل من مهمة الغازي :

– مقاومة الأمير عبد اقادر (1832–1847م) وشملت كل من المدية وبسكرة وملیانة ومعسكر وتلمسان؛

– مقاومة أحمد باي (1836–1848م) وشملت منطقة قسنطينة؛

– ثورة بومعزة (1845–1847م) وشملت الشلف والحضنة والثيتري؛

– مقاومة الزعاطشة (1848–1849م) وشملت بسكرة والأوراس؛

– مقاومة الشريف محمد بي عبد الله بن سليمان (1852 – 1854م) بالأغواط وتقرت؛

– ثورة لالة نسومر (1851 – 1857م) بمنطقة القبائل؛

– ثورة المقراني والحداد (1871 – 1872م) برج بوعريريج تم توسعت لتشمل نصف البلاد تقريبا من سوق اهراس حتى شرشال وملیانة ومن سواحل المتوسط حتى أعماق الصحراء؛

– ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864 – 1880م) بواحة البيض وجبل عمور ومنطقة التيطري؛

– ثورة الشيخ بوعمامة (1881–1904م) انطلقت هذه الثورة من عين الصفراء مستغلة انشغال فرنسا باحتلال تونس واتسعت لتشمل عين صالح والهقار ووهران.

يمكن إرجاع هذه الحالة إلى وضعية المجتمع الجزائري في تلك المرحلة ؛ حيث نجد به المدارس منتشرة في مختلف النواحي لكنها مدارس متخلفة جدا لا تلقن إلا بعض المعارف

الدينية من وجهة نظر الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت والتي كانت تتميز بالانغلاق وعدم التفتح على العالم (قنان 2009 المجلد الأول). وبالتالي لم تكن الأجيال المتخرجة من هذه المدارس مالكة للمهارات والمعارف اللازمة لفهم ما يجري في أوروبا واطماع أوروبا والعالم. كما لم تكن العلاقة متينة بين الداي وإدارته من جهة والأعيان والأهالي في مختلف إلايالات من جهة أخرى، ولم تكن مبنية على أسس صلبة وإنما علاقة تقريبية فقط، ترتكز بالأساس على المبايعة والضرائب، ولهذا لم تكن الدولة المركزية الجزائرية في ذلك الوقت قادرة على الصمود أمام هزة قوية مثل استيلاء جيش غازي على السلطة في المركز.

وفيما يخص أفكار الوجه الثالث من الحرب النفسية المبرمجة من طرف المستعمِر في المرحلة الأولى من الاحتلال فإنها كانت ترمي إلى غرس روح الدونية والاستسلام عند الجزائريين. حيث أنه بعد ما تمكّن المستعمِر من السيطرة على أغلبية المناطق من البلاد، عمل على إحلال نظام إداري مزدوج في سنة 1865، الأول خاص بالمعمرين (يتمتعون بكل الحقوق) والثاني خاص بالأهالي الجزائريين لديهم واجبات فقط بدون أية حقوق. وتجدر الإشارة إلى أن دي توكفيل يعتبر من المفكرين الذين مهدوا لمثل هذا القانون، حيث كتب من قبل صدور هذا القانون ما يلي «إنه من الخرافة محاولة دمج المسلمين مع الأوروبيين وهذا لأنه لا توجد أية علاقة فيما بينهم» ويضيف « ...يجب إيجاد تشريعين منفصلين ..... حيث أنه لا يوجد أي مانع من معاملة الأوربيين وكأنهم يعيشون لوحدهم، وهذا حسب قواعد موضوعية بشأنهم وبشأنهم فقط»[9].

إن الهدف من قانون الأهالي هو إبقاء الجزائريين قابعين في وضعية المغلوبين بدون حق المبادرة وحق الفِعل. إن المستعمِر استخرج هذا الأسلوب من أجل إهانة الأهالي الجزائريين وغرس روح الدونية في نفسيتهم. فترسانة القوانين الاستعمارية كانت تحمل في طياتها بالأساس الاتهام إلى كل جزائري على أنه أهلي لا يتمتع بصفة المواطنة وبالتالي من درجة أقل من الفرنسي.. إنها الحرب النفسية.

يجب التنبيه إلى أن قيادات المستعمِر لم يقوموا بهذه الأمور الوحشية ذات الطابع الهمجي في الجزائر التي استولوا عليها، لمجرد القتل والسلب والنهب والحرق بدون سبب وبدون تخطيط بل أن الهدف المقصود من كل هذا هو الرغبة في القضاء الفعلي

[9] دي توكفيل (1841): عمل حول الجزائر

على جزء من سكان الجزائر ودفع جزء ثان منهم إلى الهجرة عنوة بصورة فردية وجماعية وترهيب الجزء الباقي منهم وتركيعهم إلى أقصى حد... وهذا في اطار خططهم الخاصة بالحـرب النفسـية.

إن جيل الجزائريين الذين عايشوا الغزو من بدايته إلى غاية استكماله (مع نهاية المرحلة الأولى من الاحتلال)، رغم كل التضحيات والمحاولات الشجاعة التي قام بها (مثلا الثورات الشعبية)، فشل في إحداث تنظيم قادر على طرد الغازي. حيث انه بعد سنوات من المواجهة الشعبية العسكرية للمستعمِر وجد الشعب الجزائري نفسه في وضعية جد صعبة، يعاني من فقر مدقع ومجرد من حريته وممتلكاته ومؤسساته التقليدية مثل المدارس، والمساجد، والمرافق الاجتماعية التي كان يعتمد عليها في تسيير شؤونه المختلفة والتي كانت تعطي معنى وآفاقا لحياته. وبالإضافة إلى ذلك وجد نفسه مكبل الأيدي أمام ظاهرة نزول بين ظهرانه العديد من التجمعات السكانية الأوروبية المسيحية التي تريد تعويضه وجعل أرض الجزائر أرض مسيحية. ولهذا كان من المفروض والضروري على الشعب الجزائري بعد الهزيمة العسكرية والنفسية التي مني بها، الانتقال إلى مرحلة ثانية ليتجرع أولا، هزيمته التي كانت ساحقة وثانيا، لمراجعة ذاته وإعادة بنائها على أسس أكثر مثانة وأكثر تفتح على ما يجري في محيطه وفي العالم وليكتب صفحات أخرى من المقاومة، تكون متكيفة أكثر مع خصائص وإكراهات المرحلة الثانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر. ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت مرحلة جديدة مع جيل جديد وبتصورات ومعنويات جديدة.

4- المرحلة الثانية (1900-1954) صعوبة تكيف الجزائريين مع الهزيمة: إعادة بناء الذات والمعنويات

تميزت هذه المرحلة باستيعاب مرارة الهزيمة وإعادة بناء الذات الجزائرية وبخلق الشروط المناسبة لعودة المعنويات النفسية العالية. فأهم ما حدث في هذه المرحلة هو ظهور وتشكل قيادات وطنية في مختلف الميادين السياسية منها والثقافية والدينية والرياضية أدت فيما بعد إلى بروز قيادات ثورية كانت رائدة في المرحلة الثالثة من استعمار فرنسا للجزائر أي مرحلة التحرير، وهذا مثل ما سنبين فيما يلي.

لقد واصلت القوة الاستعمارية خلال هذه المرحة من الاحتلال، القيام بأعمال تندرج جميعها في عمليات الحرب النفسية وهذا في إطار:

– مواصلة هدم الفرد الجزائري والشخصية الجزائرية (سلب ما تبقى من أراضيه، الاغتيالات، المداهمات، التهجير، التفرقة بين العرب والبربر...)،

– مواصلة تحقير الفرد الجزائري من خلال اصدار قوانين أخرى استثنائية جائرة،

– مواصلة خزي الجزائريين بتدعيم عملية استخدام أبناء جلدتهم في مراقبتهم ومتابعتهم من خلال نظام البشاغاوات والياد.

لكن يبقى أهم حدث معنوي بالنسبة للاستعمار في هذه المرحلة هو احتفاله بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر؛ حيث بدأ التحضير الفعلي لهذه الاحتفالات في شهر سبتمبر 1929 لتنطلق الأفراح الرسمية في 01 جانفي 1930 ببرنامج ثري بالمهرجانات والمحاضرات والمؤتمرات عبر التراب الجزائري (نابت قاسمي (2013)، محمود علالي (2014)). كما قام عدد من الكتاب والباحثين والمؤرخين بتأليف عدة كتب أشهرها المؤلفات الاثني عشر المعروفة بكراريس الذكرى المئوية. حيث ذهب هؤلاء المؤلفون في كتبهم هذه إلى تمجيد الاستعمار في الجزائر وإبراز محاسنه حسب وجهة نظرهم والتغاضي عن المآسي التي لحقت بالجزائريين من جراء الاستعمار....إنها الحرب النفسية.

ترى هل استسلم الشعب الجزائري للأمر الواقع بعد سيطرة المستعمِر على مختلف ربوع البلاد وبعد تحكمه في مختلف خيراتها وبعد أن عرَّس في ذكرى مئوية احتلاله لها؟ يقول الرئيس الراحل فرحات عباس في هذا المضمار(2007) « عندما توقف شعبنا عن إظهار المقاومة المسلحة (بعد فشل المقاومات الشعبية) كانت تلك المقاومة قد سكنت قلبه... فواصل مواجهة الاستعمار بإيمان بحقوقه المشروعة «. واخذت المواجهة هنا طرقا أخرى ذات طبيعة سلمية تستخدم القنوات المتاحة. حيث بدأت النخبة الجزائرية تطالب بإصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية لصالح الجزائريين وهذا في إطار القوانين الفرنسية الجاري العمل بها؛ والأكثر من ذلك هو أن الشعب الجزائري خطى خطوات هامة في عملية مراجعة ذاته وإعادة بنائها وخلق الشروط المناسبة لظهور المعنويات العالية من جديد وذلك من خلال :

– مواصلة الصمود لعمليات طمس شخصيته من خلال مقاومة صامتة (مقاطعة مدارس المستعمِر ومصالحه المختلفة خاصة القضاء وحل النزاعات والأحوال الشخصية...) ؛

– استمرار الشخصيات الجزائرية في تقديم الشكاوى والعرائض للتنديد بالمظالم ومطالبة حكام فرنسا الالتزام بوعودها ؛

– مواصلة نخبة الجزائريين في التصعيد بالمطالبة بصحافة خاصة تهتم بقضايا الجزائريين. ومن بين الشخصيات الوطنية التي ساهمت في هذا التصعيد نجد عمر راسم وابن باديس؛

– ظهور شخصيات جزائرية تدافع على الحقوق السياسية للجزائريين، حيث نجد مثلا الأمير خالد بعث برسالة إلى الرئيس الأمريكي نيلسون في أفريل 1919 يطالبه فيها بمساعدة الجزائر على تحقيق حقها في تقرير المصير،

ظهور تنظيمات سياسية لديها تصورات حول مستقبل الجزائر منها:

– حركة النواب الجزائريين بقيادة بن جلول (مع بدية القرن العشرين)؛

– لجنة من أجل استقلال الجزائر وتونس (بسويسرة) نادت بتقرير المصير لكل من الجزائر وتونس (الشيخان صالح الشريف وإسماعيل صفايحي، وهما شخصيتان تونسيتان من أصل جزائري) (1916)؛

– حركة الشباب الجزائري (1919)؛

– نجم شمال افريقيا (1926)؛

– جمعية العلماء المسلمين (1931)؛

– حزب الشعب الجزائري؛

– احباب البيان والحرية (1943)؛

– ظهور في الثلاثينات التنظيمات الجمعوية المتمثلة في النوادي الثقافية والفنية والرياضية وكان آخرها الكشافة إلاسلامية الجزائرية والتي تخرج منها العديد من إطارات الثورة.

يبدو واضحا بأن جيل هذه المرحلة استوعب هزيمة المرحلة السابقة وبدأ يتدرج في التعبير عن ذاته وإعادة بنائوها من منابر هذه الأحزاب والتنظيمات الجمعوية وهذا من خلال:

– التصريح بقناعاته فيما يخص شخصيته المختلفة عن شخصية المستعمِر وتعلقه بدينه ووطنه،

– القيام بمبادرات جماعية تمثل مختلف جهات الموطن للمطالبة ببعض الحقوق وهذا عكس المرحلة السابقة حيث كانت المواجهات مع المستعمِر متفرقة،

– تجريب فكرة الاندماج مقابل الحصول على تحسينات في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وهذا وسط معانات فكرية وجدل كبير حول التجنس والأحوال الشخصية. مع إلاشارة إلى أن هذا الطرح قُبِل بالرفض ليس فقط من طرف المعمرين ولكن أيضا من طرف الجزائريين (قنان (2009 المجلد الرابع)،

– تنشيط نقاشات سياسية حول مستقبل الجزائر وأهمية تقرير المصير، أشرفت عليه الأحزاب الجزائرية وتنظيمات المجتمع المدني التي كان يقودها كل من مصالي الحاج، عبد الحميد بن باديس، فرحات عباس.....؛

– الحفاظ على كل ما يميز الجزائري في دينه وشخصيته في تسمية ونشاط مختلف التنظيمات الحزبية والجمعوية.

وهكذا عرف الشعب الجزائري مع الثلاثينيات وبداية الأربعينيات تشكل قيادة وطنية تكونت بصورة طبيعية وتمثل مختلف الميادين السياسية والثقافية والرياضية والدينية... مع العلم أن هذه القيادات كان معترفا بها كقيادات من طرف الجزائريين والفرنسيين رغم تعرضها لمضايقات من طرف سلطات الاستعمار. إن هذه القيادات الطبيعية أدت مع نهاية الأربعينيات إلى ولادة قسرية لقيادة ثانية ثورية وهذا نتيجة اختلاف عميق حول خطة السير التي يمكن اعتمادها لتحرير الجزائر. حيث حدث اختلاف وصراع فيما بين جيلين، من جهة جيل شاب صاعد متعطش للتضحية من أجل الحرية ومن جهة أخرى جيل راشد مشبع بتاريخ شعبه القاسي جدا وباليقين فيما يخص همجية رد فعل المستعمِر إذا شعر بأبسط محاولة لتقويض أركان هيمنته على الجزائر. ولقد تم تناول هذا الاختلاف من طرف العديد من الباحثين المؤرخين، حيث تناولوا بالدراسة والتحليل حيثيات هذا الاختلاف الذي برز في تباين وجهات نظر حول خريطة الطريق لتحرير الجزائر من الاستعمار، فيما بين ما سميناهم هنا بالقيادات الطبيعية من جهة والقيادات الثورية من جهة أخرى. ومن أجل توسيع عملية فهم سر هذا الاختلاف والذي أدى إلى تفجير أزمة ما زال المجتمع الجزائري يعاني من انعكاساتها إلى يومنا هذا، نعرض فيما يلي تحليل من منظور علم النفس. إن اختلاف هاتين القيادتين في تصورهما لخريطة الطريق فيما يخص تحقيق تقرير المصير يمكن إرجاعه إلى الاختلاف في الخصائص العامة والمعنويات النفسية الموجود فيما بين هاتين القيادتين (الجدول، 2).

تكشف لنا المعلومات المتضمنة في الجدول (2) وجود فوارق هامة فيما بين شخصيات القيادتين اللتين كان لهما الفضل في التحضير لتحرير الجزائر وفي استقلالها (القيادة الطبيعية والقيادة الثورية) وهذا فيما يخص العديد من الجوانب مثل السن، الحالة الاجتماعية، مستوى التعليم، الوضع الاقتصادي، المكانة الاجتماعية والمعنويات النفسية.... حيث نجد من جهة قيادات راشدة في السن لديها وضعية متوافقة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية وذات مستوى تعليمي عال ومكانة اجتماعية هامة معترف بها

وفي المقابل نجد قيادات شابة من ناحية السن مقبلة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وذات مستوى تعليمي متوسط وليس لديها اعتراف اجتماعي واضح سواء من طرف الجزائريين أو الفرنسيين. إن التمعن في هذه الفوارق تساعدنا بقدر كبير على فهم الاختلاف الذي حدث في تلك المرحلة فيما بين القيادتين، وتفيدنا في فهم سر وجود معنويات عالية بالنسبة للقيـــادات الطبيعية في التحضير للعمل المسلح وتفجير الثورة لكن بعد تهيئة الشعب ولهذا كانوا ميالين إلى تأجيل اتخاذ القرار الحاسم فيما يخص

الجدول (2) الخصائص العامة والنفسية للقيادة الطبيعية والقيادة الثورية

	خصائص القيادات الطبيعية التي ظهرت في الثلاثينيات	**خصائص القيادات الثورية التي فجرت ثورة نوفمبر****
الخصائص العامة	– شخصيات أغلبيتهم: – متقدمون في السن، – لديهم مستوى تعلمي عال، – متزوجون، – لديهم اعتراف اجتماعي واسع من طرف كل من المستعمِر والشعب الجزائري، – من أصول حضرية – من ذوي المهن ذات المكانة الاجتماعية العالية.	– شخصيات أغلبيتهم: – شباب في مقتبل العمر، – مستواهم التعليمي متوسط، – غير متزوجين، – غير معروفين لا من طرف المستعمِر ولا من طرف الشعب الجزائري، – من أصول ريفية أو الطبقة المتوسطة (حرفيين).
الخصائص النفسية	– الإيمان بتقرير المصير، – الإيمان بضرورة العمل المسلح من أجل الاستقلال، – معنويات عالية لتحضير الشعب للقيام بالثورة المسلحة، – معنويات نفسية عالية فيما يخص تحمل المسئولية التاريخية.	– الإيمان بتقرير المصير، – الإيمان بضرورة العمل المسلح من أجل الاستقلال، – معنويات عالية في الشروع في الثورة المسلحة – قناعة عالية بأن الشعب مستعد لاستقبال الثورة المسلحة، – معنويات نفسية غير محدودة فيما يخص تحمل المسئولية التاريخية.

*– **تشمل القيادة الطبيعية** كل رؤساء الأحزاب التي كانت موجودة في الساحة السياسية مثل مصالي الحاج وفرحات عباس .... ورؤساء وشخصيات الجمعيات ونوادي المجتمع المدني (الثقافية، الدينية، الرياضية...) مثل عبد الحميد إبن باديس والبشير الإبراهيمي ....

– **تشمل القيادة الثورية** مجموعة 22 الذين قرروا تفجير ثورة أول نوفمبر مع العلم أن أغلبيتهم كانوا مناضلين في حزب الشعب ، مثل العربي بن مهيدي، محمد بوضياف، بن بولعيد، أيث أحمد، زيغود يوسف، أحمد بن بلة، ديدوش مراد، أحمد محساس ...

إلاعلان عن بداية الثورة، أما بالنسبة للقيادات الثورية فالوضع بالنسبة إليها يستدعي البدء في العمل المسلح فورا ولا يحتمل أي تأخر وهذا في إطار معنويات نفسية غير محدودة تم التعبير عنها بالنصر أو الاستشهاد.

وهكذا لقد قامت القيادة الثورية بتفجير الثورة بدون انتظار الضوء الأخضر من القيادة الطبيعية بل الأكثر من ذلك طلبت منهم مثلهم مثل جميع أفراد الشعب الجزائري دون أي تمييز، بوجوب الالتحاق بالركب فرادى إلى التنظيمين الجديدين السياسي والعسكري (جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني) من أجل تحرير الجزائر (بيان أول نوفمبر). إن المعنويات النفسية غير المحدودة هي التي صنعت الفارق مرة أخرى وكانت حاسمة في حدوث هذا الحدث التاريخي الهام أي تفجير ثورة أول نوفمبر وإلاعلان على بداية تحرير الجزائر بكل الوسائل المشروعة واللازمة.

3– المرحلة الثالثة (1954–1962) ثورة التحرير: مرحلة المعنويات غير المحدودة

لقد تم في بداية هذه المرحلة تفجير ثورة أول نوفمبر من طرف قيادات ثورية وإلاعلان على بداية العمل المسلح إلى غاية استقلال الجزائر أو الاستشهاد. والجدير بالذكر هو أن أهم ما يميز هذه المرحلة هي المعنويات النفسية غير المحدودة لكل من القيادة السياسية والعسكرية، مما ساعد على زرع الأمل وإلايمان بالنصر. كانت هذه المعنويات غير المحدودة السبب الرئيسي في تقويض أسس الاستعمار الاستيطاني بالجزائر مثل ما سنبينه فيما سيأتي من تحليل وشرح.

كانت القيادة الثورية المسئولة عن تفجير ثورة أول نوفمبر 1954 تدرك بأن المعادلة العسكرية ليست في صالحها وأن كل المؤشرات كانت تشير صراحة إلى أن المستعمِر لديه القوة اللازمة للقضاء على أي تمرد، بفضل قدراته العسكرية الهائلة من حيث التعداد

والمعدات المتطورة. ولهذا كان أعضاؤها[10] يؤمنون منذ البداية، مع ميلاد المنظمة الخاصة، بأن الثورة يجب أن تكون ثورة شعب تتميز بالإيمان وحب التضحية، وأن الحرب المنشودة مثل ما عبر عنها أحد الأعضاء، السيد آيت أحمد في تقرير له سنة (1948) هي «حرب ثورية حقيقية تستمد إمكانياتها من القوة المعنوية المتمثلة في روح المقاومة والإيمان بالوطن والتفاني والتصميم على النصر الذي يجب أن يهز كل الجزائريين» [11].

وتطبيقا لهذا التصور ركزت قيادة الثورة في عملها على وضع خطة تضمن تجنيد كل الجزائريين من أجل إنجاح مشروع ثورة تحرير الوطن مهما كان الثمن الذي يمكن دفعه كأفراد أو كمجتمع. وفي هذا الإطار تجدر الاشارة إلى أن الثورة نجحت في اختيار الكلمات والأفكار التي تضمنها أول بيان لها، بيان أول نوفمبر. حيث كان مفهوم الجهاد الذي نادت به يشمل معنى سياسيا يتوافق مع منظور السياسيين الذين كانوا يطمحون إلى تحرير الوطن ويشمل كذلك المعنى الديني والذي يتوافق ويتماشى مع أفكار عامة الشعب (الجهاد في سبيل الله)، وبالتالي كان محتوى البيان يتماشى مع اتجاهات وتصورات أغلبية الجزائريين، وأدى إلى تدعيم المعنويات النفسية وتأكيد التصورات الذهنية فيما يخص إمكانية دحر الاستعمار. وعليه فإن بيان أول نوفمبر يعتبر أول نجاح معنوي كبير للثورة الجزائرية، إذ سمح هذا البيان من تقديم مشروع عمل هام وحد الجزائريين وألهمهم آفاقا معنوية عالية وهي الاستقلال والحرية أو الاستشهاد في سبيل الله والوطن. إن النهاية في كل الحالات تعتبر مشرفة وذات معنى نفسي وثقافي هام جدا بالنسبة للجزائريين وهو الوصول إلى العيش في الحرية أو الاستشهاد في سبيل الله والوطن.

سنعمل فيما يلي على تحليل محتوى حرب المعنويات النفسية التي تم اعتمادها من طرف الثورة ومن طرف المستعمِر خلال معركة التحرير الحاسمة.

تصنف عمليات حرب المعنويات النفسية بصورة عامة، في الحروب وخاصة الشاملة منها مثل ثورة التحرير الجزائرية إلى ثلاثة أنواع وهذا سواء حسب طبيعة الجمهور

[10] إن أعضاء القيادة الثورية التي فجرت ثورة أول نوفمبر كان أغلبيتهم ينشط في المنظمة الخاصة التي تم تأسيسها من طرف حزب حركة انتصار الحريات الديموقراطية في 15 فيفري 1947. وكان الهدف منها مثل ما صرح به مصالي الحاج هو تدريب المناضلين عسكريا وتكوينهم سياسيا بهدف التحضير لتحرير البلاد. مع العلم أن المستعمِر كشف أمرها مما أدى إلى حلها.

[11] Rapport d'Ait Ahmed (1948), in, Harbi, M (1981) : Les archives de la révolution Algérienne. Jeune Afrique

الموجهة له (الجمهور الداخلي أو جمهور العدو أو الجمهور المحايد) أو حسب طبيعتها ومداها أي :

– الحرب النفسية الاستراتيجية وهي موجهة للجميع وغير محددة لا بالزمان ولا بالمكان؛

– الحرب النفسية التكتيكية (العملياتية) الموجهة لجيش العدو ورعاياه في ميدان المعركة وهدفها عرقلة جهود العدو الحربية وغرس روح الاستسلام عند جنوده؛

– الحرب النفسية التعزيزية الموجهة للمدنيين وذلك من أجل الحصول على أكبر درجة ممكنة من التعاون من طرفهم من أجل تسهيل تحقيق الأهداف الاستراتيجية.

سنعتمد على هذا التصنيف في تحليلنا للحرب النفسية أثناء ثورة أول نوفمبر وذلك لأنها تسمح بشمل مختلف عمليات هذه الحرب والتي شهدتها ساحة الصراع.

5.1– الحرب النفسية الاستراتيجية : تبنى الحرب النفسية الاستراتيجية على أساس عقيدة كل طرف، حيث يكون الهدف توصيل هذه العقيدة إلى عقول وقلوب الناس. وبالتالي فإن هذا النوع من الحرب النفسية يشمل كل فئات الشعب والجيش داخل الوطن وداخل أوطان البلدان الصديقة. كما أنها تشمل كل فئات الشعب والجيش داخل وطن العدو وأوطان حلفائه ؛ وهذا لضمان ما يلي:

ا– استمرار الايمان من طرف الأتباع والبلدان الصديقة بالأهداف الاستراتيجية المرسومة؛

ب– التأثير على أراء ووجهات نظر أتباع وأصدقاء العدو بصورة تسهل من عملية تحقيق الأهداف الاستراتيجية المرسومة ؛

ترى ما هي عقيدة الطرفين أثناء مرحلة الحسم فيما بين 1954–1962؟ يقدم الجدول (3) معلومات هامة حول هذه النقطة.

الجدول (3) خصائص عقيدة كل من قيادة ثورة التحرير الجزائرية وقيادة المستعمِر الفرنسي أثناء مرحلة 1954–1962.

أفكار عقيدة الثورة الجزائرية	ملاحظة
– ثورة مستمرة حتى النصر أو الاستشهاد؛ – الاستعمار لا يفهم إلا لغة السلاح؛ – استخدام كل الوسائل المشروعة والمتاحة للثورة، – جبهة التحرير الوطني هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري؛ – الثورة هي ثورة شعب بأكمله وليس مجموعة من الأفراد؛ – الثورة هي ضد الاستعمار الفرنسي وليس ضد الشعب الفرنسي؛ – شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.	– ثبات في الأفكار طوال هذه المرحلة وهذا رغم الخسائر الجسيمة والحصار الخانق على طول الحدود الشرقية والغربية.
أفكار عقيدة المستعمِر	**ملاحظة**
– فرنسا جلبت الحضارة إلى الجزائر، – الجزائر فرنسية وستكون دائما فرنسية، – سكان الجزائر الأصليين هم مسلمون جزائريون فرنسيين (درجة أعلى من الأهالي ودون الفرنسيين والمعمرين)؛ – الحرب على إلارهاب حتى القضاء التام عليهم (أي على الثوار)؛ – إصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين الفرنسيين؛ وذلك لعزل إلارهابيين عنهم؛ – الجيش الفرنسي قادر على القضاء على الفلاقة واسترجاع الأمن والاستقرار؛ – عمليات التهدئة لاسترجاع الأمن والاستقرار (في بداية الثورة)؛ – نداء سلام الشجعان موجهه لأفراد جيش التحرير (نداء دوغول 1960)؛ – الفرنَسة التامة للجزائر: المساواة بين الفرنسيين والمسلمين الجزائريين في الحقوق والواجبات؛ (في إطار تحظير مشروع تقرير المصير لسنة 1961) – الجزائر الجزائرية (في إطار مشروع تقرير المصير لسنة 1961) – تقرير المصير حسب مشروع دوقول 1961 (فشل).	– تغير مستمر في الأفكار وهذا من أجل التكيف مع تغيرات الميدان الداخلي والعالمي والحفاظ على الفكرة الأساسية الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا
– التفاوض بين القيادتين ↓ – اتفاقيات إفيان ↓ – استفتاء تقرير المصير 19 مارس1962 ↓ – عيد الاستقلا والشباب 5 جويلية 1962	

تبين قراءة الجدول (3) الاختلاف الكبير فيما يخص قوة عقيدة الطرفين، حيث نلاحظ بأن عقيدة قادة ثورة التحرير قد حافظت على مضمونها وتجانس أفكارها عبر الزمان، والعكس حدث بالنسبة لأفكار عقيدة المستعمِر. حيث نجد عقيدته تتغير حسب طبيعة الظروف ومدى تحكمه في الأوضاع. فقيادة المستعمِر كانت تراوغ طوال هذه المرحلة واضطرت لتقديم تنازلات هامة فيما يخص بعض الأفكار من عقيدتها، مثلا:

– قبول المساواة بين سكان الجزائر (الأهالي سابقا) والفرنسيين؛

– تصحيح الأخطاء السابقة في معاملتها للجزائريين (هذا الجنس الذي روجت عنه في بدايات الاحتلال على أنه ينتمي إلى الوحوش غير القابلة للتحضر).

وهذا من أجل الحفاظ على عقيدتها الأساسية وهي الجزائر فرنسية.

لكن في المقابل يمكننا أن نلاحظ بأن تنظيم الثورة استطاع فعلا أن يحافظ على ثبات ومصداقية عقيدته وبالتالي أهدافه الاستراتيجية في الميدان وعبر الزمان؛ حيث برهن عمليا أنه كلما زادت عمليات التدمير في هذه المرحلة الجد حرجة من طرف المستعمِر، من خلال حربه العسكرية المادية التي استخدم فيها كل أنواع التدمير والتقتيل، كان جوابه الرفع في معنوياته ومعنويات الشعب والزيادة في التشبث بعقيدته. إن الحرب التي قادها سياسيون وجنيرالات أمثال جاك سوستال وشال وماسو طُبِّقت فيها نفس الممارسات الهمجية التي طبقها بيجو في المرحة الأولى من الاحتلال، لكن بأسلحة أكثر فتك وتطور وهذا في سياق ما سُميَّ بالحرب على الإرهاب. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر استخدام وسائل حرب غير تقليدية ومحذورة مثل النابالم، التقتيل الفردي والجماعي للمدنيين، الانتقام من المدنيين، التعذيب الجماعي والفري بكل أشكاله، الإعدام، تدمير وحرق القرى والمداشر، وضع الجزائريين في محتشدات، مصادرة الأملاك ، تسييج الحدود الجزائرية (الشرقية مع تونس والغربية مع المغرب) بالأسلاك الشائكة وهذا من أجل عزل المقاومة المسلحة في الداخل ... ولمواجهة هذا الوضع الذي كان منتظرا من طرف الجزائريين، عملت الثورة على الزيادة في استعداداتها وإمكانياتها القتالية واستعدادات الشعب للقتال والتضحية والاستشهاد ؛ حيث زادت العمليات الفدائية وزادت النداءات بالحرية والاستقلال وزاد تحمس الشعب والتفافه حول الثورة وزادت عمليات رفض سلطة المستعمِر ومقاطعة الشعب لمصالحه المختلفة مثل القضاء وحل النزاعات والأحوال الشخصية وتوسعت رقعة المظاهرات وإلاضرابات.

ولقد عملت الثورة على الحفاظ على هذه الصورة ونقلها إلى العدو لادخال الذعر وروح الاستسلام وجعله يفقد الثقة في قدرات جيشه المدجج بالسلاح ومؤسساته المحترفة والمتطورة في الحرب النفسية وإدارته الفعالة وبالتالي قبوله الهزيمة.

إن الرسائل القوية التي كانت ترسل لقيادة الجيش الفرنسي وإلادارة الاستعمارية من خلال هذه المواجهة الغير مادية تتضمن وعيدا رهيبا، وكأن قيادات الثورة والشعب الجزائري كانوا يقولون « يا فرنسا مهما دمرت وعذبت وحرقت وقتلت وهجرت، .... فالثورة والشعب الجزائري هنا على العهد باقون ومقاتلون رافضون لكل أنواع سلطتك والخطر سيأتيك من كل جزائري بدون استثناء وفي كل مكان (فحرب التحرير وصلت إلى باريس). ومهما تنازلت واعترفت بالمساواة بين الفرنسيين والأهالي الجزائريين، أي من كُنت تسميهم البدائيين الوحوش، فإننا لن نتخلى ابدا على مطلب الحرية والاستقلال».

ومن أجل تجسيد هذه الرسائل عمليا في الميدان لعبت الحرب النفسية التعزيزية والحرب النفسية التكتيكية دورا هاما وحاسما.

5.2– الحرب النفسية التعزيزية :إن عمليات هذا النوع من الحرب النفسية توجه بالأساس إلى المدنيين في الوطن ووطن العدو وإلى البلدان الصديقة والبلدان الحليفة للعدو والبلدان المحايدة. وذلك لبلوغ أكبر درجة من التفهم بالنسبة للقضية (تحرير الجزائر بالنسبة للثورة الجزائرية والحفاظ على فكرة الجزائر فرنسية بالنسبة لإلادارة الاستعمارية). ويبقى الهدف من هذه العمليات هو الحصول على تعاون فعال أو على الأقل اتجاهات إيجابية وتعاطف أو في أسوء الحالات الحياد.

وتجدر الإشارة إلى أن عمليات الحرب النفسية التعزيزية ونتائجها تعتبر أساسية بالنسبة لمسار الحرب كلها، حيث كان يوجد تحديات حيوية ومصيرية بالنسبة للطرفين فيما يخص عمليات الحرب النفسية التعزيزية، ولهذا كان الصراع قوي. فالأهداف المقصودة هنا بالنسبة لكل طرف هي كسب كل من :

أولا– الشعب الجزائري بالنسب للثورة وتكوين أصدقاء من الشعب الفرنسي أما بالنسبة لفرسا فكانت تبحث عن كسب مودة الشعب الجزائري والحفاظ على تأييد الشعب الفرنسي لفكرة الجزائر فرنسية ؛

ثانيا – المنظمات الدولية من أجل التأثير على القرارات في المحافل الدولية لصالح الأهداف الإستراتيجية وهذا بالنسبة لكل طرف.

ثالثا – تغيير اتجاهات البلدان المحايدة أو التي تعتبر حليفة للطرف الآخر؛ والحفاظ على تأييد البلدان الصديقة. (Edmond Goblot, 1925)

– مواجهة دعايات العدو والشائعات التي كان يطلقها والمنشورات التي كان يرميها بالطائرات على القرى والمناطق الريفية والجبال، ومكبرات الصوت التي يستخدمها في الساحات العمومية؛

– اختيار الرجال والنساء المناسبين لتكليفهم بمهام معينة أو تجنيدهم في صفوف جيش التحرير الوطني؛

– توعية الجماهير حول الخلفيات التي يريد الاستعمار أن يحققها من خلال الإصلاحات التي أعلن عنها أو التي بدأ في تطبيقها؛

– المساهمة في إمداد الجيش الوطني الشعبي بمختلف الحاجيات (اللباس، الأكل، الأسلحة، الدواء....)؛

– تشجيع الطلبة على الالتحاق بصفوف الثورة وتحمل المسئوليات،

– محاربة النعرات القبلية والجهوية والآفات الاجتماعية؛ (Edmond Goblot, 1925)

– إلاشراف على الحالة المدنية والقضائية والسياسية.

وفي نفس إلاطار وضعت الثورة نظاما لجمع الاشتراكات وأموال الزكاة والتبرعات من الشعب وطريقة توزيع هذه الأموال على مستحقيها. كما أسست لظهور اللجان الشرعية لفض النزاعات والخصومات بين أفراد الشعب.

وبإلاضافة إلى هذه التواصلات والتبادل والخدمات، عملت الثورة على تطوير جهاز خاص بالاستعلامات وإلاعلام والمواصلات والبريد. وكلف هذا التنظيم بالعديد من المهام، أهمها ما يلي:

– الكشف على المتعاونين المندسين في أوساط الشعب أو الثورة والجواسيس العاملين مع فرنسا ومراقبة وحدات الجيش الفرنسي وعتاده؛

– تسجيل كل المعلومات حول كل ما يتعلق بالمعارك (الخسائر والغنائم والأسرى...) وإحصاء خسائر التخريب والتهديم؛ والخسائر التي ألحقها جيش التحرير بالاستعمار.

والجدير بالذكر هو أن الثورة فتحت المجال واسعا أمام الطلبة والنساء والعمال والمهاجرين سواء في فرنسا أو غيرها ومدت جسور تواصل متينة معهم جميعا، مما سمح لها من بناء خلفية جماهرية متينة زادها قوة من حيث الإمكانيات والمعنويات.

ومن اجل ربح القضية على المستوى الدولي عرف الشطر الثاني من الحرب النفسية التعزيزية نشاط هام فيما يخص العمل الديبلوماسي. فجبهة التحرير الوطني حددت ضمن استراتيجيتها من البداية تدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية. وبنيت سياستها على قواعد ومبادئ واضحة لم تغيرها مع الزمن مما مكنها من تكذب الدعاية الفرنسية وإبراز عدالة القضية الجزائرية، منها ما يلي:

– الدولة الجزائرية كانت موجودة قبل الغزو الفرنسي ؛

– الدولة الفرنسية معتدية وتحاول القضاء على الشعب الجزائري وطمس شخصيته؛

–الثورة الجزائرية ، ثورة شعبية تطالب باستعادة حق مغتصب؛

لقد عملت قيادة الثورة على تحقيق أهدافها الديبلوماسية أولا في محيطها الحيوي (بلدان المغرب العربي) ثم البلدان العربية وإلافريقية والأسيوية (الغالي 2009، قنان 2009). وبعد ذلك وصلت قضية الجزائر إلى الأمم المتحدة مما جعلها تقفز في المحافل الدولية قفزة نوعية هامة. وهذا بفضل : 1– التنظيم والهيكلة المستمرة للعمل الديبلوماسي خاصة بعد مؤتمر الصومام، حيث ضبط هذا المؤتمر السياسة الخارجية وقواعد السير الديبلوماسية، 2– إعلام ثوري قوي ساهم بصورة كبيرة في التعريف بالثورة وعدالتها وكشف طغيان المستعمر وهذا على المستوى الداخلي والمستوى الدولي.

وهكذا فازت الثورة في الحرب النفسية التعزيزية على الاستعمار الفرنسي بعزلها للشعب الجزائري عن مصالحه من جهة ومن جهة أخرى بتدويلها للقضية الجزائرية وإدراجها في جدول أعمال الأمم المتحدة. كما أنها تمكنت من كسب تأييد ومساندة العديد من المثقفين الفرنسيين على رأسهم الفيلسوف جان بول سارتر والذي يعد من أكبر المناهضين للاستعمار.

ومن أهم النجاحات التي حققتها الثورة الجزائرية في إطار الحرب النفسية التعزيزية هو تمكنها من :

1– كسب وتأييد العديد من المثقفين الفرنسيين وعلى رأسهم الفيلسوف جان بول سارتر والذي يعتبر من أكبر المناهضين للاستعمار. حيث أشرف هؤلاء على شبكات للدعم وعلى التعريف بعدالة التورة الجزائرية، بل البعض منهم ألتحق بالعمل الميداني بجانب الثوار؛
2– حشد الجماهير الجزائرية من أجل القيام بمظاهرات في مختلف مدن الجزائر في عدة مرات وخاصة في ديسمبر 1960، الشكل (1).
إن النجاحات المعنوية لمظاهرات ديسمبر العارمة متعددة، حيث كان لها الأثر الكبير على معنويات جيش التحرير الذي كان يعاني من حصار عنيف (الحدود كانت كلها مسيجة بالأسلاك الكهربائية بالإضافة إلى عمليات عسكرية متواصلة من طرف الجيش الفرنسي، أستخدم فيها مختلف الأسلحة المتطورة الجوية والبرية) وعلى مكانة القضية الجزائرية في المحافل الدولية وذلك بتأكيد للعالم بأن ثورة الجزائر هي ثورة شعب بأكمله وليست مجرد عمل لمجموعة من الأفراد المتهورين من جهة ومن جهة أخرى زعزعت ثقة المستعمِر في نفسه وقدراته وأدخلت روح الهزيمة في قيادته.

لقد خرجت الجماهير الجزائرية في 9 ديسمبر 1960 بأعداد غفيرة في مظاهرات ضخمة تطالب فيها باستقلال الجزائر، وواجهوا بصدور عارية وعزيمة عالية نيران جيش المستعمِر، ورغم سقوط العديد من الضحايا واعتقال المئات من المتظاهرين، فإن المظاهرات استمرت لعدة أيام وفي العديد من المدن. ولهذا صرح ضباط فرنسيون في تعليقهم على هذه المظاهرات بعدما هدأت، أنها كانت هزيمة معنوية (بسيكولوجية) تشبه هزيمة ديان بيان فو العسكرية.

5.3– الحرب النفسية التكتيكية (العملياتية):

إن ملف الحرب النفسية التكتيكية يحتاج إلى معالجة خاصة وتدقيق خاص وهذا للأسباب التالية (لهذا من المفيد تخصيص بحث خاص بهذا الجانب من الحرب النفسية) :

*إن الحرب الشاملة التي دارت بين الاستعمار الفرنسي والثورة الجزائرية شهدت مواجهات مثيرة فيما يخص الحرب النفسية التكتيكية، حيث كانت هناك عدة اختراقات وعدة ضربات قاسية من كل طرف، ولكن لم تكن هذه العمليات مصيرية فيما يخص نتائج الصراع، وإنما كانت مدعمة ومؤكدة على وجود قوتين فعليتين في الميدان، وبالتالي كان يجب على كل منهما أن يأخذ في الحسبان الطرف الآخر.

إن عمليات هذه الحرب يغلب عليها الطابع السري جدا وبالتالي عملية التدقيق والبحث تتطلب وقتا أكثر؛

*إن نتائج الحروب الشاملة مثل ثورة الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي لا تحددها قوة هذا النوع من الحروب (الحرب النفسية العملياتية)، حيث أن كفة النتائج تكون بالدرجة الأولى بسبب الحرب النفسية الاستراتيجية والحرب النفسية التعزيزية؛

الخاتمة

يبدو واضحا من خلال العرض والتحليل المقدم أعلاه أن الحرب النفسية بكل أنواعها كان لها دورا كبيرا في تحديد مسار ونهاية الاستعمار الفرنسي للجزائر. حيث أنه بعد هزيمة نكراء (1830–1900 م) ومعاناة لا حدود لها لمدة أزيد من مائة سنة (1830–1950 م) استطاع الجزائريون أن يعيدوا سكة التاريخ إلى المسار الطبيعي في إطار معنويات نفسية غير محدودة (1954–1962م). ولقد ظهر في تاريخ الجزائر الحديث رجال ونساء عقدوا العزم وتحدوا حقائق الواقع المرير وقالوا إنها ثورة حتى النصر أو الاستشهاد في سبيل الوطن.

ويمكننا أن نقول بناء على تحليل المعطيات التاريخية المترتبة عن الحرب النفسية بأن الثورة نجحت فعلا في الحرب النفسية الاستراتيجية والحرب النفسية التعزيزية، حيث تفوقت على الاستعمار الفرنسي بصورة واضحة. كما أنها استطاعت أن تثبت وجودها وتصمد وترد الضربات من خلال الحرب النفسية التكتيكية. وهكذا استطاعت الثورة أن ترجح الكفة لصالح الحرية والاستقلال وعجلت برفع الغبن عن الجزائريين واستعادت لهم كرامتهم. ونتيجة لقوة هذا الانتصار وصل بريق هذه الثورة إلى مختلف أنحاء العالم خاصة البلدان العربية وإلافريقية وأمريكا اللاتينية.

والجدير بالذكر هو أن عزيمة الجزائريين فيما يخص التصدي لمتطلبات النصر مهما صعبت ليس بجديد. فإذا رجعنا إلى التاريخ نجد ما يفسر لنا لماذا نجح شباب في العشرين سنة من العمر من تفجير ثورة حتى النصر وإلاعلان بصدق بأن المخرج هو واحد فقط إما الحرية والاستقلال أو الاستشهاد، وكيف بعفوية كبيرة استجاب أفراد جيش التحرير الوطني لمثل هذا الحل البسيط –المعقد، وآزرهم أغلبية أفراد الشعب...

فعندما نتمعن في تاريخ الجزائريين نجد هذا الجزائري الأمازيغي الحر الطليق اللسان طارق بن زياد يأمر جنوده منذ عدة قرون مضت بحرق السفن التي أرسى بها على شواطئ

اسبانيا لنشر الإسلام، ويخطب في جنوده لكي يُبْعِد عنهم بصورة نهائية إمكانية التفكير في غير النصر، وقال قولته المشهورة « أيها الجنود ...العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم والله إلا النصر أو الموت ولا يعينكم على النصر إلا ما تستخلصون من أيدي عدوكم...» إن التمعن في هذا الكلام نجده متجسدا فعلا في أفعال وأقوال العربي بن مهيدي وزملائه، ولهذا فإن ثورة التحرير الجزائرية هي ثورة الشهداء.

المراجع

1. أبو القاسم سعد الله (2005). الحركة الوطنية الجزائرية (1830– 1900)، دار الغرب الإسلامي، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين.
2. أبو القاسم سعد الله (2005). الحركة الوطنية الجزائرية (1900– 1945)، دار الغرب الإسلامي، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين.
3. أبو القاسم سعد الله (2005). الحركة الوطنية الجزائرية (بداية الاحتلال)، دار الغرب الإسلامي، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين.
4. عمر هارون الخليفة (2000). علم النفس والمخابرات. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
5. محمود باشا محمد (2005). الاستيلاء على ايالة الجزائر، ترجمة عزيز لقمان، طبعة ثانية. دار الأمل– الجزائر.
6. يحيى بوعزيز (1996). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهدين – الجزائر.
7. عبد القادر حلوش (1999). سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، طبعة جديدة 2013، دار الأمة – الجزائر.
8. سعد دحلب (2007). المهام المنجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب – الجزائر.
9. عمار حمدان (2007). حقيقة غزو الجزائر، ترجمة لحسن زعدار، منشورات تالة –الجزائر.
10. محمد منير حجاب (2005). الحرب النفسية، دار الفجر للنشر والتوزيع – القاهرة
11. فرحات عباس (2007). الجزائر من المستعمرة إلى المقاطعة : الشباب الجزائري 1930، ترجمة أحمد منور، منشورات المركز الوطني للدراسات للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954– الجزائر.
12. فرحات عباس (2010). ليل الاستعمار، ترجمة فيصل الأحمر، المسك – الجزائر.
13. الغالي غربي (2009). فرنسا والثورة الجزائرية (1954– 1958) دراسة في السياسات والممارسات. غرناطة للنشر والتوزيع – الجزائر.
14. محمد فورصو (2011). التاريخ بين الذكرة والسياسة .سطو فرنسا على التاريخ. مجلة أفكار وآفاق– منشورات جامعة الجزائر2
15. جمال قنان (الأعمال الكاملة) (2009). العلاقات الجزائرية الفرنسية، المجلد الثاني، منشورات وزارة المجاهدين – الجزائر.
16. جمال قنان (الأعمال الكاملة) (2009). معاهدات الجزائر مع فرنسا، المجلد الأول، منشورات وزارة المجاهدين– الجزائر.

17. جمال قنان (الأعمال الكاملة) (2009). دراسات في المقاومة والاستعمار، المجلد الرابع، منشورات وزارة المجاهدين – الجزائر.

18. جمال قنان (الأعمال الكاملة) (2009). دراسات في التاريخ المعاصر، المجلد السادس، منشورات وزارة المجاهدين – الجزائر.

19. صالح فيلالي (2006). الخلفيات إلايديولوجية لثورة أول نوفمبر 1954، أعمال الملتقى الدولي الأول حول تاريخ الثورة الجزائرية ؛ 11– 12 ديسمبر 2006، جامعة سكيكدة، دار الهدى – الجزائر.

20. بشير كاشه الفرحي (2007). مختصر وقائع وأحداث ليل الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830–1962). مؤسسة القصبة للاتصال والنشر وإلاشهار– الجزائر.

21. كلود ليوزو وجيل منصرون (2007). الاستعمار والقانون والتاريخ، ترجمة بشير بولغراق ؛ دار القصبة – الجزائر.

22. كلود ليوزو (إشراف) (2007). العنف، التعذيب والاستعمار من أجل الذاكرة الجماعية، ترجمة الصادق عماري وابراهيم سعدي ومراد اعراب. دار القصبة للنشر– الجزائر.

23. بوعلام نجادي (2007). الجلادون 1830– 1962 ؛ ترجمة محمد المعراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار (ANEP) – الجزائر.

24. يوسف مناصرية، وآخرون (2007). الأسلاك الشائكة وحقول الألغام . منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954– الجزائر.

25. Mohamed Harbi, (1981). Les archives de la révolution Algérienne. Jeune Afrique- Paris

26. Olivier le Cour Grandmaison (2005). Coloniser Exterminer : sur la guerre et l'état colonial.

27. Alexis de Tocqueville (1841) Travail sur l'Algérie. http: //classiques.uqac.ca/classiques/De_tocqueville_alexis/de_la_colonie_algerie/travail_sur_algerie/travail_sur_algerie.html)

28. Jacque Vérgès (2004). Les crimes d'état : la comédie judiciaire. Editeur Plon